

من حاضره المعايين إلى الماضي الغيابي، فتسنى له أن يقيم جدلية
تطورية أساسها مبدأ التراكم والتغير.

وينظر ابن خلدون ظاهرة التحول والانسلاخ انطلاقاً من
مبدأين أساسيين هما المخالطة والغلبة، فأما المخالطة - التي هي
احتكاك بالمجاورة - فتمثل الثقل الاجتماعي في القضية اللغوية،
وهي بذلك نموذج الضغط «العمراني» بالمعنى الخلدوني الصائر
بعده إلى دور كايم، وأما الغلبة فهي المحرك الحضاري والسياسي
في تطور اللغة إذ تمثل قانون التداخل اللغوي طبقاً لميزان القوى
في الصراع السياسي بين المجموعات المتغيرة.

على أن صاحب العبر وإن احتفظ شكلياً بالموقف المعياري
من ظاهرة التغير فظل ينعتها بما لا يخلو من شحن تهجينية
دأبت عليه سنن الفكر الصفوي في تاريخ الحضارة العربية
- وبموجب تلك السنن سمي التغير فساداً - فإنه قد نفذ إلى
حقائق الظاهرة ولا سيما في نشوئها وتسربها إلى الفرد ثم إلى
المجموعة حتى يتوطد عليها اللسان باعتباره المؤسسة الجماعية المثلى.

فمجيء الإسلام إلى العرب وخروجهم به من الحجاز إلى
حوزة الأمم الأخرى ثم طلبهم الملك، كل ذلك قادهم إلى مخالطة
غيرهم من المجموعات اللغوية، ولما خالطوهم «تغيرت تلك
الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالطات التي للمستعربين
والسمع أبو الملكات اللسانية» وهكذا تغيرت «بما ألقى إليها
مما يغيرها لجنوحها إليه باعتياد السمع».

ويزيد ابن خلدون مشكلة التحوّل عن طريق التسرب
بالاحتكاك والتداخل كشفاً واستنطاقاً مقيماً قانونه الجدليّ